مئة مليون فرنك ، وهو مبلغ هائل بمقاييس ذلك الزمن . فاذا علمنا انه بالرغم من هذه الرشاوي الضخمة خرج هيرش من هذا المشروع وهو أغنى رجال العالم ، أدركنا كم كانت أرباحه عظيمة . ولم يكن السلطان عبدالحميد غافلا عن تصرفاته ، بل انه فكر في اعتقاله ، الا أن الدولة العثمانية الضعيفة بقيت عاجزة عن اتخاذ أي اجراء لايقاف حركة النهب المنظم الذي فرضه هذا المقاول المحتال عليها . بل ان هيرش بعد هذه الفضائح كلها ، ابتاع لنفسه وساما عثمانيا رفيعا كمكافأة على خدماته !

ويستشهد غرونفالد بقول أحد المسؤولين عن المشروع عندما وقف امام القضاء في فيينا مدافعا عن نفسه ، قائلا : « ان السكك الحديدية لا تشيد بواسطة المواعظ الاخلاقية » . ثم يضيف مبينا ان المحكمة برأته . ويستنتج غرونفالد من ذلك أن التورط في أعمال مشبوهة هو أمر لا مفر منه في مشروع ضخم مثل خط البلقان . ولكن اذا كان غرونفالد متحفظا في تبرئة البارون ، فقد أبدى كاتب يهودي آخر اعجابه بالبارون لانه تغلب على الصعاب والعقبات في « بلاد شبه همجية مثل تركيا » ولانه قام بدور « ممدن » فيها !

تم انجاز المشروع بعد مرور عشرين سنة على البدء فيه . وتولى السفير الاميركي ستراوس دور الوساطة النهائية بين السلطات العثمانية والبارون لتسوية الخلاف بينهما . وكانت الحكومة التركية تطالب هيرش بدفع ١٣٢ مليون فرنك اليها ، ولكنها أسقطت مطالبتها عندما حصلت على ٢٢ مليون فرنك ، وبذا طوي الخلاف ، وغسل هيرش يديه من الارتباط بتركيا . لقد خرج من المشروع السيىء الصيت ملطخا بعار الفضائح ، ولكنه كان أيضا أغنى من أي وقت مضى ، وأعظم نفوذا . وقد حدث في هذه الفترة أن وقعت معركة أخرى بين الكتلتين الرأسماليتين : اليهودية والكاثوليكية . فقد برز مقاول فرنسي يدعى يوجين بونتو ، كان خبيرا في السكك الحديدية وسبق له أن عمل تحت امرة آل روتشيلد ، ثم انفصل عنهم والف شركة تسيطر عليها مجموعة كاثوليكية ، هدفها المعلن هو تخليص الاقتصاد الفرنسي من سيطرة اليهود والماسونيين الاحرار ، فتحالف أثرياء اليهود ، وعلى رأسهم آل روتشيلد وهيرش ضد بونتو ، وأشاعوا بأن بونتو يتعاون مع اليهود في الخفاء . وبعد مضاربات حاسمة هزت البورصة ، انهارت مشاريع بونتو وانتهى ماليا . وهكذا مرة أخرى انتصر الرأسمال اليهودي في معركة فاصلة ضد الكاثوليك . وكانت هذه معركة ثانوية بالنسبة لهيرش ، فهو اثر انتهائه من الخط البلقاني ، دخل الآن مرحلة جديدة من حياته . فبعد أن نال الشهرة العريضة كمقاول عالمي ، أصبح الآن المحسن الكبير الذي يتبرع بالملايين . فكتبت صحيفة المانية معادية له ، تفسر انصرافه الى الاعمال الخيرية بأنه الى حد ما نابع من تأنيب الضمير المتأتي من فضائح الخط البلقاني . ولكن هذه الصحيفة كانت ساذجة جدا ، باعتبار ان المستفيدين الوحيدين من تبرعات البارون كانوا اليهود وليس غيرهم . على ان هيرش استمر يلعب دور الرجل الانساني الكبير ، حتى انه عندما مات ابنه لوسين عن ٣١ سنة ، قال : لقد فقدت ابنـي ولكن ليس وريثي ، فوريثي هو الانسانية !

وقد شاركت زوجته في أعماله الخيرية بين اليهود ، لا سيما وانها من عائلة عرفت بحدبها على أبناء جلدتها . وقد كرس هيرش كل جهوده بعد انتهائه من المشروع التركي ، لتهجير اليهود من أوروبا الشرقية وتوطينهم في العالم الجديد ، أي في الارجنتين والبرازيل وكندا والولايات المتحدة . وكان قد طلب من السلطات الروسية أن تسمح له بالانفاق على اليهود في بلادها وذلك لرفع مستواهم الاجتماعي ، ولكن هذه